ثنائية التواصل بين المبدع والمتلقي

عبر عصور من النتاج الأدبي المتميز في مسيرة أدبنا العربي كانت وما تزال العلاقة بين المبدع والمتلقي مثار تفكير وجدل ، المبدع ينظر إليها من زاويته وفق رؤيته وثقافته ومعتقده ، والناقد ينظر إليها من زاوية توجهه وطبيعة نظرته النقدية : ميله إلى جانب أو إلى الآخر أو حياديته ، وبين هذا وذاك تبقى العلاقة سجالا بين الاستمرار والتواصل أو الجف الانفصال .

وواضح أن عملية التواصل تقوم على ثلاثة أجزاء : المبدع – العمل الأدبي – المتلقي . والشاعر أو الناثر – كونه مبدعا ساعة المخاض أقصد ساعة الإبداع – يكون تحت تأثير ما يدور في نفسه من انفعالات وما يقيمه من عناصر يشكل بها عمله الأدبي ، في هذه اللحظة بالذات لا يكون المتلقي في حسبانه ، ومع ذلك فهو الجزء المهم في منظومة العمل الأدبي ، لكونه الحكم الذي يثمن ما يقع تحت عينيه من نثر أو شعر .

ولأن العمل الأدبي هو وسيلة الاتصال بين المرسل والمرسل إليه فمن الضروري أن تتوفر له دواعي التوهج والقدرة على الإيحاء والتأثير ، لذلك يحرص صاحب المنتج الأدبي وصانعه على تلمس ما يهم المتلقي وما يشغل باله وما يجول في خاطره ، من غير تملق أو مداهنة ، لأن القارئ من الذكاء بمكان يجعله يميز الخبيث من الطيب ، وعليه فمن اللازم اللازب أن يتحرى الأديب أو الشاعر أسس الجودة ، وعناصر التميز، ولا يتأتى ذلك إلاّ لمن أوتي الموهبة ورزق مفاتيح البيان وأدرك مواطن التأثير ، وعرف متى يقدم ومتى يؤخر ، ومتى يثور ومتى يهدأ

وكيف يغير بعض الكلم عن مواضعه في غير إفراط أو تفريط ، لأن المتلقي – سواء أكان قارئا أم مستمعا – يهمه بالدرجة الأولى أن يسمع ما يشنف آذانه ، ويستولي على مجامع قلبه ، وأن تقع عينه على ما يروقه ، ويرقى به إلى مدارج النشوة والاستمتاع ، ويدرك أن الشاعر أو الناثر قد عبر في وضوح عما في نفسه .

والمبدع المطبوع هو وحده القادر على الإجادة بما أوتي من مجامع القوة والتمكن وبما امتلك من ناصية البيان والفصاحة . ومن أوتي الفصاحة والبيان فقد أوتي خيرا كثيرا، " والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافي ،وأراك في صدر بيته عجزه ، وفي فاتحته قافيته، وتبينت في شعره رونق الطبع ووشي الغريزة " (١).

لذلك لم يكن بدعا أن يطلق النقاد على زهير(شاعر الحوليات) لحرصه ومكوثه طول العام في تنقيح شعره وتجويد صناعته ، ولم يكن حرصه هذا إلا لينال الحظوة والمكانة عند الجمهور ، وحق لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يستعذب قوله:

ولو أن حمدا يخلد الناس أخلدوا ولكن حمد الناس ليس بمخلد

وأن يحكم على شعره بالجودة معللا ذلك بأنه شاعر" لا يعاظل في القوافي ولا يستخدم حوشي الكلام ، ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه " (٢).

والمبدع الذكي يعرف جيدًا ما يرضي الجمهور ، وما يستميله إليه ، ويعرف ما يتمتع به من ملكة الذوق ومعرفة جيد اللفظ من رديئه ، فيضرب على أوتار قلبه ماطاب من النغمات ، وما عذب من المعاني الشريفة . وما سما من الأغراض

وهذا الذي يجعل الجمهور يفضل شاعرا على غيره ، وهو الذي حدا بابن قتيبة أن يضع الشعراء في طبقات ، ويقدم شاعرا على آخر.

وفي عصرنا الحديث يحرص الشعراء على إرضاء المتلقي ، ويهتمون به بل منهم من يبالغ في إرضائه ، حتى يكسب الحمد والثناء ، فهذا نزار قباني يبين حقيقة العلاقة بينه وبين جمهوره الكبير في كل مكان بأن "الشعر يد، والجمهور باب ، والشاعر الذي لا يتجه بشعره إلى أحد ، يبقى نائماً في الشارع " ويقول أيضا : "الشعر خطاب نكتبه إلى جهة ما ، والمرسل إليه عنصر هام في كل كتابة وليس هناك كتابة لا تخاطب أحداً وإلا تحولت إلى جرس يقرع في العدم وأزمة الشاعر الحديث الأولى هي أنه أضاع عنوان الجمهور " (٣).

وهو بذلك يبرز أهمية المتلقي ، وأنه دائما في اعتبار المبدع ، بل هو الوجهة التي يتجه إليها في شعره ،وأن الجمهور في رأيه "طفل طيب القلب، كثير البراءة ،وهو لكي يحب و يستأنس لا بد له من فهم ما يقال له ، فالأطفال لا يمنحون حبهم إلا لمن يفهمون طفولتهم و يملأون أيديهم بهدايا غير منتظرة "(٤).

أما ما يكون من جمود في العلاقة بين المبدع والمتلقي فمرده إلى أمور كثيرة منها ما يعتري العمل الأدبي من غموض ربما لعدم نضج التجربة عند المبدع أو لضعف فيه وعدم مقدرة منه ، وهو ما سماه ابن قتيبة بالشاعر المتكلف " والمتكلف من الشعر وإن كان جيدا محكما فليس به خفاء على ذوي العلم لتبينهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكير وشدة العناء ورشح الجبين ، وكثرة الضرورات، وحذف ما بالمعاني حاجة إليه ، وزيادة ما بالمعاني غنى عنه "(٥) وربما يكون جمود العلاقة لضعف الذائقة عند المرسل إليه ، وهذا أمر مهم في دعم التواصل

وقد فطن عبد القاهر الجرجاني إلى الذوق وأهميته ، يقول في دلائل الإعجاز : " اعلم أنك لن ترى عجبا أعجب من الذي عليه الناس في أمر النظم ، وذلك لأنه ما من أحد له أدنى معرفة إلا وهو يعلم أن ههنا نظما أحسن من نظم، ثم تراهم إذا أنت أردت أن تبصرهم ذلك ، تسدر أعينهم وتضل عنهم أفهامهم ، وسبب ذلك أنهم أول شيء عدموا العلم به نفسه ، من حيث حسبوه شيئا غير توخي معاني النحو " (٦) ويقول : " والداء في هذا ليس بالهين .. لأن المزايا التي تحتاج أن تعلمهم مكانها وتصور لهم شأنها أمور خفية ومعان روحانية ، أنت لا تستطيع أن تنبه السامع لها وتحدث له علما بها حتى يكون مهيئا لإدراكها ، وتكون فيه طبيعة قابلة لها ويكون ذوق وقريحة يجد لهما في نفسه إحساسا بأن من شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض فيها المزية على الجملة ، ومن إذا تصفح الكلام وتدبر الشعر فرق بين موقع شيء منها وشيء " (٧) . غير أن نزارًا يرجع انقطاع التواصل إلى المبدعين أنفسهم إذ يحيلون هذه القطيعة إلى أن " العصر مختلف عن شعرهم " (٨) ومن ثم يرون (أي المبدعين) أن " العلة ليست فيهم بل في الجمهور " (٩) ويستطرد نزار في بيان أسباب انقطاع العلاقة والتواصل إلى أن " الشاعر الحديث يقف في قارة و الناس في قارة و بينهما بحار من التعالي والغرور وعدم الثقة و بدلاً من أن تكون ثقافة الشاعر وسيلة للتفاهم و الاقتراب تصبح قلعة حجرية لا تفتح أبوابها للجمهور"(١٠) .

لقد كانت الفصاحة والتمكن في بناء العمل الشعري ، والقدرة على التأثير من دواعي الفخر والتباهي عند العرب ، وكان العي والحَصَرُ عيبا ، فهذا السموأل بن عادياء يتيه بفصاحة قومه التي لا ينكرها أحد :(١١)

وننكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول

وحق للمتنبي أن يتيه بشعره ، وبما فيه من بليغ الكلم ، وعميق التجربة والخبرة بالحياة والحكمة، فأبصره من لا يرى وسمعه من لا يسمع فيفتخر قائلا :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم (١١)

كما يبين العقاد منزلة الشاعر، وما في قلبه من لين ورحمة ورقة ويسمه بالرحمن في قوله :

والشعر من نفس الرحمن مقتبس والشاعر الفذ بين الناس رحمن (١٢)

والشعر في رأي العقاد لسان الحياة المعبر عن آلامها وآمالها ، ولولا ما يقوله الشعراء لغدت الحياة خرساء جامدة لا حياة فيها ، وأن حلو القول يبدد ظلمات الكون ، ويشرق جمالا وراحة في هجير الحياة وفي أرجائها ، يقول :

لولا القريض لكانت وهي فاتنة

خرساء ليس لها بالقول تبيان

إلى بما يطويه كتمان الحياة

ولا القريض لكانت وهي فاتنة

خرساء ليس لها بالقول تبيان

إن ديمومة العلاقة ، واستمرار التواصل بين المتلقي والمبدع تقوم على مفردات جمة ، يعود أكثرها إلى المبدع نفسه ، فهو أدرى بما يكتب ، ويعرف خبايا نتاجه ، وعليه التزام الصدق (الانفعال الحقيقي) بالموضوع الذي يتناوله ، وأن يحسن بناء قصيدة ، حتى يكون له التأثير الفعال في المرسل إليه حيث كان ، وحتى يجني ثمرة ما أبدع إعجابا واستمرار تواصل ، وعلو منزلة .

الهوامش

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة .

(٢) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ج ٤ ص١١٩.

(٣) الأعمال الكاملة (قصتي مع الشعر) نزار قباني ص٣٤.

(٤) السابق ص ٣٤.

(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة .

(٦) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص ٢٩٠.

(٧) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص ٢٩.

(٨) الأعمال الكاملة (قصتي مع الشعر) ص ٣٥.

(٩) الأعمال الكاملة(قصتي مع الشعر) ص ٣٥.

(١٠) السابق ص ٣٧.

(١١) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ج٢ ص ٧٧.

(١٢) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي ج٢ ص ٢١٥.

(١٣) الأعمال الكاملة للعقاد (أعاصير مغرب) ص٥٩ .

(١٤) السابق ص٥٩ .

obeikandl.com